

الحواضر العلمية ومؤسستها في بايليك الغرب خلال الفترة العثمانية بالجزائر

أ.ة. بيشي رحيمة/ كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة غرداية

مقدمة:

يعد التعليم عاملا أساسيا لازدهار الحركة الفكرية في أي مجتمع كان، فقبل استنجد الجزائريين بالعثمانيين وحكمهم للمغرب الأوسط، ارتكزت الحركة التعليمية في ثلاثة حواضر أساسية هي مدينة تلمسان في الغرب الجزائري وبجاية وقسنطينة في الشرق الجزائري، وقد ازدهرت في الحواضر السالفة الذكر العلوم والآداب والفنون لعدة قرون.

أما خلال العهد العثماني فقد تميزت الحركة العلمية ب بروز حواضر علمية جديدة واختفاء أخرى كما هو الحال بالنسبة لتلمسان الواقعة في بايليك الغرب، والتي تراجعت مكانتها العلمية بسبب سقوط الدولة الزيانية، كما برزت حواضر علمية أخرى في بايليك الغرب كمازونة ومعسكر ووهران في الغرب الجزائري والتي هي محور ورقتنا البحثية التي جاء عنوانه موسوما بالحواضر العلمية ومؤسستها في بايليك الغرب.

- الحواضر العلمية ومؤسستها في بايليك الغرب:

كانت الحياة الثقافية ببائلك الغرب خلال القرنين (10-11هـ/16-17م) تعاني ركودا كبيرا، وذلك لانشغال حكام البائلك بمسألة الاحتلال الاسباني لوهران والمرسى الكبير، والتهديد الذي كان ينجر عن هذا التواجد، والمحاولات المتكررة لهؤلاء البابات في صد غاراته، أو في التفكير في شن الحملات لإجلائه، مما أثر سلبا على الحياة العلمية. إضافة إلى ذلك فإن اهتمام الناس كان منصبا بالدحة الأولى نحو التجارة باعتبارها تدر عليهم أرباحا طائلة، مما يضمن لهم تلبية احتياجاتهم اليومية، وهذا راجع طبعا إلى التدهور السياسي و التآزم الاقتصادي والتفكك الاجتماعي الذي عاناه البائلك خلال هذين القرنين، كما أن نقص وسائل تشجيع التعليم المادي والمعنوي من

طرف حكام المنطقة وانشغالهم عنه، كان له أثره البارز على تدهور وركود الحياة الثقافية في المنطقة.

إلا أن هذه الأوضاع لم تبقى على حالها، فقد شهدت المنطقة استقرارا سياسيا بعد تولي الباي بوشلاغم والباي محمد بن عثمان الكبير والذي كان له دور كبير في انعاش الحياة الثقافية، وذلك بفضل رعايته للعلم والعلماء، واهتمامه بالمدارس والمساجد، وتشجيعه لحركة النسخ والتأليف، ومكافأة العلماء على أعمالهم، فكتب على يديه فتح وهران سنة 1791م، بسبب اعتماده على العلماء والطلبة المرابطين على تخوم وهران.

1/مازونة: عندما وفد العثمانيون إلى الجزائر، جلبت مازونة أنظارهم بسبب موقعها الجغرافي الهام، وطاقتها الاقتصادية، وسمعتها الفكرية والأدبية، فموجب التنظيم الإداري الذي عرفته الجزائر سنة 1562م والقاضي بتقسيم البلاد إلى ثلاث مقاطعات عرفت بالبايليك، اختيرت مازونة لتتوج كعاصمة لبايليك الغرب، الذي كانت أجزاء منه تثن تحت وطأة النصرانيين وكان لأهلها شرف المشاركة في الحملات الجهادية ضد التواجد الإسباني في وهران مثل الحملة التي قام بها "حسن باشا بن خير الدين عام 1568م والتي قام بها مصطفى بوشلاغم¹ عام 1708م"،

وقد انعكست الخطوة السياسية لمازونة على واقعها الثقافي، فشيّد بها صرح علمي، عرف ب:

أ-المدرسة الفقهية بمازونة: والتي كانت تعتبر رمزا حضاريا ومعلما ثقافيا للجزائر طيلة قرون عدة من الزمن، تناولتها المصادر بإسهاب، ثم المؤرخون المعاصرون بإنتاجات جمّة، لذا كانت تقارن أيامها حسب بعضهم بالمعاهد العليا في فاس، تونس ومصر، لما تتوفر عليه من أساتذة ذاع صيتهم في المغرب والمشرق²

ويقول سعد الله عن هذه المدرسة الدينية المتخصصة في الدراسات الفقهية، "وكانت مدرسة

مازونة مقصد طلاب النواحي الغربية، ولاسيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان ووهران..³،

تأسست هذه المدرسة على يد سيدي محمد بن الشارف البلداوي- وكان من اللاجئيين

الأندلسيين- سنة 1614/1029 الذي درس بها 64 سنة إلى أن توفي، وقد أنشأها من ماله

الخاص وقبره معروف وموجود بها قبة تسمى باسمه "قبة ابن الشارف"⁴

بعد وفاة المؤسس الفعلي خلفه نجله الذي ترك هو أيضا خلفه ابنه محمد أبو طالب عبد الرحمن الذي أصبح شيخا للزاوية سنة 1189هـ / 1175م، وبقي يدرس بها مدة أربعين سنة إلى وفاته سنة 1818م⁵.

تتكون هذه المدرسة من مسجد جامع للصلاة المفروضة، ومكتبة كبيرة بها مختلف المصادر الفقهية والأدبية، إضافة إلى بعض المرافق التابعة له، والتي كانت تستعمل لإيواء الطلبة⁶. كانت هذه المدرسة مختصة في العلوم الدينية، والدراسات الفقهية المختلفة، كالفقه وأصوله، والحرائط، وعلم التوحيد وعلم الحديث، وعلم اللغة العربية من نحو وصرف وعلم البلاغة، وغيرها من العلوم⁷.

عرف عن هذه المدرسة كثرة مجالسها ونجابة طلبتها وقريحة أشياخها، ولعل أهم شيوخها محمد أبو طالب بن عبد الرحمن بن محمد المعروف بابن الشارف المازوني، ومنهم كذلك محمد بن علي السنوني، ومنهم من حاضر فيها ودرس بها أمثال:

- الشيخ القطب المشهور سيدي محمد الميسوم

- الشيخ الكتاني مدرس بمدينة فاس المغربية

- (الشيخ بلغيث والشيخ بسودة المغربي..... وغيرهم كثيرون، حيث منهم من هو من قسنطينة

و وجدة وندرومة وتلمسان والغزوات⁸

والكل حسب تخصصه، فمنهم من عمد على شرح مختصر الخليل ومنهم من عمل على القضاء والأحكام والبعض الآخر يشتغل على علم الفرائض⁹. ونظرا للشهرة العالية لها وفد إليها طلاب من المغرب الأقصى، خاصة من إقليم الريف ومدينة فاس بالتحديد، واستمر التوافد طيلة 500 سنة التي عاشتها المدرسة¹⁰

إلى جانب النشاط العلمي الذي تميزت به مدرسة مازونة، كانت لها مساهمة فعالة في الدفاع عن الوطن وإعلان الجهاد ضد الإسبان في وهران والمرسى الكبير في إطار حملة منظمة قادها شيوخ وطلبة الزوايا والمدارس، ومن أشهر العلماء الذين ساهموا في فتح وهران الأول الشيخ مصطفى بن عبد الله بن مؤمن

الرماسي المشهور بالقلعي وأبو الحسن العبدلي، وفي الفتح الثاني الشيخ محمد بن علي الشارف المازوني، حيث التحق بالرباط رفقة ابنه الشيخ هني وشقيقه محمد الطاهر بن حوا ومحمد مصطفى بن زرفة ومعهم نحو مائتي طالب، وقد سلمهم الباي السلاح والعدة، ونظرا للجهود التي قامت بها مدرسة مازونة في الجهاد ضد الإسبان في رباط وهران كافأها السلطنة العثمانية بتوسيع المدرسة وذلك عن طريق بناء بيوتها وجامعها¹¹.

وبعد استفادة مدرسة مازونة من التوسعة حظيت بأحباس كثيرة، مما ساعدها على الاستقرار وزادها شهرة محليا وإقليميا كما أسلفنا، حتى أنهم كانوا إذا أرادوا أن يفاخروا بطالب لغزارة علمه عظموه بقولهم "لقد درس بمدرسة مازونة"¹²

ب-مكتبة مدرسة مازونة: اشتهرت بكثرة مخطوطاتها وتخصصها في عدة علوم، أما مصادر محتوياتها فكانت إما من كتب الأندلس ومصر، أو التي نسخها الخطاطون، أو عن طريق الهبات من طرف العلماء والأدباء، بل وحتى البايات، ولا زالت المدرسة تحتفظ بمخطوط لصحيح مسلم أهدها الباي محمد بن عثمان الكبير سنة 1202 هـ لشيخ المدرسة¹³.

من أهم المخطوطات التي تحتفظ بها المكتبة:

- تحقيق الفقير السالك لترجيح الإمام مالك (للمؤلف محمد بن اسماعيل الأندلسي وهو

مخطوط في الفقه)

-تحقيق المبادئ وتحرير المعاني على رسالة أبي زيد القيرواني للمؤلف أبي الحسن علي المالكي

والناسخ هو أبو القاسم بن محمد بن أبي القاسم بن عبد الرحمن البراني

-كتاب الدرر في حل ألفاظ المختصر) للشيخ محمد بن إبراهيم بن خليل

-مصحف القرآن الكريم) ناسخه محمد بن الحاج بن طالب)

-حياة الحيوان(وهو مخطوط في الأدبيات لمؤلف مجهول)

وهناك عناوين أخرى في الفقه مثل: كتاب الإيجاز، وشرح الرسالة لأبي زيد القيرواني، وصحيح البخاري وغيره في إطار تخصص المدرسة لمختلف علوم الدين و علوم اللغة¹⁴

ج- المساجد: نظرا للأهمية التي تحظى بها المساجد، فقد اهتم بها أفراد المجتمع، حكومة وشعبا، فساهموا في تشييدها ، ووقفوا لها الأوقاف لصالحها، وقد أدت المساجد الدورين العبادي (إقامة الصلاة) والتعليمي(دروس الوعظ والإرشاد، وحلقات العلم)، و عليه فإن مساجد مازونة تمثلت فيما يلي:

-مسجد سيدي عيسى وعزوز بن يحيى المفرأوي، الذي تم تشييده خلال القرن 7هجري، وشرع فيه تحفيظ القرآن لأنه فريضة، ولأهميته في توجيه الفرد لما فيه صلاحه.

-مسجد سيدي صالح بناحية بوعلوطة، وكان الطلبة يتعلمون فيه العلوم الدينية

-جامع سيدي محمد الغريب الذي اعتبر من أبرز مراكز التعليم بالمدينة¹⁵

د- الكتابات: يعتبر الكتاب مؤسسة من المؤسسات التربوية التعليمية التقليدية، التي عرفت الجزائر منذ الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ولا تزال هذه الظاهرة موجودة إلى يومنا هذا خاصة في المناطق النائية، و أعتز بكوني تلقيت مبادئ تعليمي في الكتاب، وحفظت القرآن على اللوح، الذي يفتقر إليه أبنائنا اليوم، الذين يحفظون القرآن مباشرة من المصحف، فلا يتعلمون اللغة الفصحى من تلاوة مشايخهم لسور القرآن عند تحفيظهم له، ويكون ذلك بتلاوة الآية من طرف الشيخ ، -أو كما نطلق عليه الطالب-، والتلميذ بدوره يدونه على لوحته، ثم يرد له الآية السابقة التي تلاها عنه، ليكمل له الشيخ الآية اللاحقة، وهكذا دواليك.

وكان الأطفال عندما يبلغون السادسة يلتحقون بالكتاب، أو ربما في سن أقل فقد درسنا في عمر الثلاث والأربع سنوات، حسب كفاءة الصبي، وميله للتعلم، حيث يتعلمون القراءة والكتابة، وتركز برامج التدريس على مبادئ اللغة العربية، واستظهار كتاب الله، وتعليم بعض مبادئ الحساب، والتدريب على الزخرفة والخط¹⁶

هـ-الزوايا: في بداية العهد العثماني، انتشرت الزوايا في الريف بالإضافة إلى الزوايا التي كانت قائمة في المدن، وقد زاوجت الزوايا بين مهمة العبادة و التعليم هي أيضا، كما أنها كانت مقرا يجد

فيه الغرباء وعابرو السبيل المأوى والإطعام، وبما أن الزوايا تعد قبل كل شيء مؤسسات مبنية على نشر الدعوة الطرقية، فهي صوفية قبل كل شيء لكنها تجمع في تعليمها بين تحفيظ القرآن وتدريس علوم الدين والفقه والعقيدة ومبادئ القراءة والكتابة والتربية الروحية والتهيئة للجهاد¹⁷ ومن أهم الزوايا التي كانت منتشرة في مدينة مازونة وما حولها نجد:

-زاوية سيدي بللوش في أولاد سلامة: شهدت هذه الزاوية بتخريج الكثير من الطلبة حفظة القرآن

-زاوية سيدي غلام الله: ولقد شهد لهذه الزاوية أيضا بتخريج عدد من الطلبة

وبالرغم من فقدان مازونة مكانتها السياسية بانتقال عاصمة البايليك إلى معسكر ثم وهران إلا

أنها استمرت تشع بالمعرفة، وكانت بحق حاضرة علمية ومدرسة فقهية رائدة، وظلت تحتل مكانة هامة في بايلك الغرب.

2/ معسكر: تعتبر معسكر حاضرة علمية من حواضر العلم والثقافة في العصر الحديث، ومنارة للعلم ومقصدا للطلاب من شتى مناطق بلاد المغرب، بفضل انتعاش الثقافة فيها، لظهور عدد هام من العلماء الأجلاء الذين أثروا الحياة الثقافية والعلمية بمدينة معسكر، فاستطاعت بذلك أن تتبوأ مكانة ثقافية بارزة خاصة خلال العهد العثماني، وبما أن المنطقة كانت ترزح تحت نير الاحتلال الاسباني فإن الاهتمام الأول للعلماء كان تعبئة الجماهير وحثها على الجهاد في سبيل الله، وقد كان الكثير منهم يتقدمون الصفوف عند المعارك، ويحضون المجاهدين من خلال خطبهم على التضحية في سبيل الله، فخلال فتح وهران الأول سنة 1708م، شاركت جماعة من العلماء في ذلك، ومنهم العالم المعسكري عبد القادر المشرقي¹⁸

وقد خلد ابن ميمون الفتح الأول لوهران في كتابه " التحفة المرضية في الدولة البكداشية، كما

شارك عدد معتبر من العلماء في فتح وهران الثاني 1792م، و الذين خلدوا مآثر الفاتحين

وجهودهم، واستبسال المجاهدين، خاصة العلماء والطلبة في مؤلفاتهم، كابن سحنون الراشدي في

كتابه: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، وابن زرفة في الرحلة القمرية في السيرة الحمديدية، وأبو راس الناصري في عجائب الاسفار ولطائف الأخبار¹⁹ .

أ- مساجد معسكر: كانت حاضرة معسكر خلال الفترة العثمانية تضم عدة مساجد أهمها ثلاثة هي:

1-جامع السوق، قام الباى محمد الكبير بتوسعته وذلك بإضافة صفيين متقدمين أي صفيين من الأمام، بعدما رأى إقبال الناس الكبير عليه ، لان دوره لم يقتصر على الصلاة فحسب ، بل كان يقوم أيضا بالمهمة التعليمية من خلال إلقاء الدروس ، وتنظيم المناظرات الفكرية بين العلماء،

2-المسجد العتيق: أسسه الباى عثمان سنة 1761م، وقام الباى محمد الكبير بهدمه وإعادة ترميمه وأمر له بجلب المياه وبني بجانبه خمسة ميضآت للوضوء، واستبدل منبره بمنبر أحسن من ذي قبل، وهو المسمى حاليا بمسجد سيدي حسن الذي تمت فيه مبايعة الأمير عبد القادر²⁰

3-الجامع الأعظم: شيد يوم 5 ذو القعدة 1195هـ/1781م، وهو معروف عند أهالي معسكر بجامع عين البيضاء، أو جامع محمد الكبير كما بنى الدار والقبة الملاصقة للجامع نفسه المعروفة عند الناس بقبة الباى إبراهيم، لكونه مدفونا بداخلها، وتعرف بقبة عبد القادر الجليلي، وقد أمر الباى بكتابة اسمه وتاريخ بنائها، ونقش على الحجارة²¹ .

ب-المدرسة الحمديدية: أسسها الباى محمد بن عثمان الكبير، وتسميتها بالحمديدية نسبة إليه، وكان تشييدها جنب الجامع الأعظم، ولقد اعتبرت من أهم المدارس التي أسسها هذا الباى بالغرب الجزائري، لما لها صدى واسع في العالم العربي والإسلامي، حيث أصبحت أكبر معهد علمي يضم أساتذة اكفاء متفرغين لمهمة التعليم فقط، إلى جانب الآلاف من الطلبة والتلاميذ الذين سارعوا إلى الإقبال على العلم بلهفة شديدة²².

وألحقت بها مكتبة كبيرة حيث كانت كل الكتب عبارة عن حبوس لخدمة الطلبة والأساتذة أوقفها الباى نفسه على المدرسة، وقد اختار للإشراف على هذه المدرسة شخصيات مرموقة أمثال محمد بن عبد الله الجليلي الذي وصفه ابن سحنون قائلا: "... المعظم المفضل كاشف الغوامض بذهنه الذي هو اسنى من البرق والوامض المقدم في حلبة العلوم ومباحث المنشور والمنظوم، النقادة

النحرير، الشاهدة له دروسه بالتحقيق والتحرير ، ذو الفضائل الوافرة والمحسن التي لم تزل في الناس على كثرتها متظافرة...." ²³.

إضافة إلى محمد المصطفى بن عبد الله الدحاوي المشهور بابن زرفة الذي كان الكاتب الخاص للباي ومحمد بن طاهر بن عبد القادر بن محمد المعروف بابن حوا الذي تولى القضاء في مدينة معسكر أيام الباي محمد الكبير، أما عدد طلبتها فقد وصل حوالي 400 طالب ؛ وكان طلابها من أول المستجيبين للمرابطة حول وهران وتحولت المدرسة إلى رباط أيام الفتح الثاني لوهران حيث خرج علمائها للجهاد فأقاموا عند جبل المائدة وكانوا هناك يدرسون ويتلون القرآن ويحاربون وبذلك تحولت المدرسة المحمدية إلى قلعة عسكرية وفي نفس الوقت مدرسة متنقلة ²⁴.

تخصصت المدرسة المحمدية في تدريس الفقه المالكي، وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة العربية ومن أهم الكتب التي كانت تدرس بها كتب الفقه مثل حواشي الشيخين الزرقاني والخرشي، وحاشية الشيخ مصطفى الرماصي، إلى جانب المختصرات التي وضعت على المصادر، كمختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي، وكتب النحو مثل شرح الشيخ المكودي وألفية بن مالك، وفي اللغة كتاب القاموس للفيروز آبادي ومقامات الحريري، وفي الأصول شرح الشيخ المحلي، وعدة علوم أخرى كالتصوف والفلك و علم البيان، وغيرها من العلوم النقلية الأخرى ²⁵.

إلا أن انتقال عاصمة البايليك من معسكر إلى وهران أفقدها أهميتها نظرا لانتقال المدرسين إلى العاصمة الجديدة، وذلك بحكم اعتماد الباي الكلي عليهم.

ج-مدرسة زاوية القيطنة: تأسست هذه المدرسة بمنطقة

القيطنة بالقرب من بوحنيفة عام

1787م على يد مصطفى بن مختار بعد عودته من بغداد عاصمة العلم، وقد جمعت مدرسة

القيطنة بين جميع مراحل التعليم من أدنى مرحلة إلى أعلاها كما كانت تعقد بها ستة حلقات

لجلسات العلم، ومن العلماء الذين درسوا بها العلوم الشرعية من فقه
وحديث وعلم كلام

الحافظ أبو راس حيث أكد ذلك بقوله : " وذهبت للقيطنة وقد اجتمعت جموع الطلبة "
وكان

الشيخ عبد القادر المشرفي من الذين اختارهم الشيخ مصطفى بن مختار
الراشدي للتدريس بهذه

المدرسة وبها تعرف عليه أبو راس الناصري وأخذ عنه، وقد شارك المشرفي في
حرب الإسبان بوهران على عادة علماء البلاد ، ومع مرور الزمن تطورت
المدرسة كثيرا وأصبحت تلقب بمعهد القيطنة نظرا لتوافد
العلماء والطلبة عليها، وساهمت مدرسة القيطنة بشكل كبير
في نشر العلم والثقافة الإسلامية في الجزائر خلال العهد العثماني، واستمر دورها
حتى دخول الاحتلال الفرنسي

أما المكتبات الخاصة فعددها كبير جدا، وتعود إلى العائلات التي نالت شهرة علمية، وضخامة
مكتباتها يرجع لاستمرارها لعهد طويل كمكتبة أبي راس الناصري بمعسكر التي حبسها عليه باي
وهران مصطفى المتزلي، وهو من أمر بتشبيدها، وسماها مكتبة المذاهب الأربعة²⁶

د-الزوايا: أهمها زاوية القيطنة في وادي الحمام التي كان يديرها محي الدين والد الأمير عبد القادر؛
والتي لم يقتصر فيها على تعليم القرآن الكريم ومختصر خليل الذي كان قاعدة التعليم؛ بل كانت
تدرس فيها بعض العلوم كالتفسير والحديث وعلم اللغة²⁷

بالإضافة إلى: زاوية الشيخ محمد السليمان.

-زاوية الشيخ عبد الله بن عبد الرزاق الإدريسي.

-زاوية الشيخ محمد المشرفي الإدريسي.

-زاوية الشيخ عبد القادر المختار الإدريسي.

- زاوية الشيخ الخضير الصنهاجي الإدريسي.

-زاوية الشيخ عبد الرحمان المحمودي الإدريسي.

-زاوية الشيخ محمد بن الأعرج السليماني.

3/وهران: إن تعرض وهران للاحتلال الاسباني ما يقارب الثلاثة قرون قد أثر سلبي على نهضتها الحضارية، فلم تستفد إلا بعد تحريرها الثاني من قبضة الاسبان سنة 1791م، على يد الباي محمد الكبير، الذي اتخذها عاصمة للبايليك، وصب كل جهده من أجل نفخ الغبار عنها ، وإعمارها ، خاصة في الجانب الحضاري، فجلب لها كل العلماء الذين عرفهم ، واستنهض الهمم، واجتذب السكان، وشيد المساجد ودور العلم.

أ-مساجد وهران: من بينها مسجد البرانية أو بني عامر الذي أسسه الباي بوشلاغم سنة 1708م لتثقيف السكان وللتجار الأجانب الذين يحضرون إلى وهران بغرض التجارة ، وبلا شك فقد كان هذا المسجد منارة علم في المدينة، كما أسس الباي محمد الكبير العديد من المساجد منها جامع الباي أو الذي يعرف "بجامع بناصف" لكونه كان به وكيلا وذلك في السنة الأولى من الفتح²⁸

وقد اعتبر أكبر مسجد في وهران، وشيد في السنة التي تليها أي سنة 1792م مسجد الباي الذي حمل اسمه ، والمعروف أيضا بمدرسة خنق النطاح²⁹ وفي سنة 1796م أمره الداوي بابا حسن داي ببناء الجامع الأعظم المعروف بمسجد الباشا تخليدا لفتح وهران ، كما كان لابنه عثمان دور بارز في هذا المجال، حيث أسس جامع محمد بن عثمان الكبير بين عامي 1799-1800م بجوار برج القصبة إلى الشمال³⁰.

ب-مدرسة خنق النطاح: أنشأت هذه المدرسة بخنق النطاح و، وبداية كانت بمثابة الرباط الذي كان يقيم فيه الطلبة للدراسة ومراقبة تحركات الإشبان العسكرية في مدينة وهران وأبراجها ورصد معاونيهم من القبائل المحيطة بوهران، واعتبرت هذه المدرسة كقاعدة أمامية إسلامية لتمهيد فتح وهران، التي كانت الشغل الشاغل للجزائر والخلافة العثمانية خاصة و ان الإشبان كانوا

ينطلقون في حملاتهم من مدينة وهران إلى المناطق الأخرى كالحملات التي شنت منها إلى الجزائر ومستغانم وتلمسان³¹

كما انها تعتبر من المدارس العتيقة التي بناها الباي بخلق النطاح سنة 1208هـ/1793م، والتي تعرف في وقتنا الحاضر بجامع الباي، وكانت تضم أساتذة أكفاء ولذلك لا غرابة أن تغص بطلبة العلم والمعرفة، تخصصت المدرسة في تدريس الفقه المالكي، وعلم التوحيد إلى جانب علوم اللغة العربية³²

ومن المؤسسات العلمية التي كان لها الدور المشرف والبارز في الحركة العلمية وأيضاً في استرجاع مدينة وهران نجد:

ج-الرباطات: جاءت كلمة الرباط وفق الآية الكريمة في قوله تعالى: "(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ)"³³

، وحسب ابن العنابي: أن يعد المسلمون المقيمون في الرباط أو الثغر المحاذي لأعدائهم الكفار كل ما قدروا عليه من أسباب القوة، كالأمور النظامية وغيرها، والمراكب البرية والبحرية، والحصون، والخنادق والأسلحة، وأدوات الرمي، والخيول، وذخائر المال، والأكل والشرب، وغير ذلك، مما تدعو حاجة الإرهاب لديه".³⁴

وتعني كلمة رباط ملازمة المكان والإقامة به، ويطلق على المناطق المتاخمة للأعداء قصد حراسة حدود المسلمين، وتحول المصطلح ليطلق على التعبد والتعليم خاصة عند الصوفية³⁵. وكانت هذه الرباطات منتشرة في مدينة وهران، وقد أحى الباي محمد بن عثمان رباط وهران المسمى بـ "يفري" بجبل المائدة، وأنزل به الطلبة والمدرسين وقراء القرآن ليثبطوا همّة الإسبان ويحولوا بينهم وبين ما يأتهم من الخارج من أسلحة وموؤن، وذلك استعداداً لفتحها، وبالفعل فقد لعبت هذه

الرباطات دورا كبيرا في تحرير مدينة وهران والمرسى الكبير خلال الفتح الأول والثاني، ومن أشهر علماء الرباط نذكر في الفتح الأول مصطفى الرماصي وأبو الحسن العبدلي الذين كانوا يقودون طلبتهم علما وجهادا، وفي هذا يقول الجامعي: "... أن طلبه العلم وحمله القرآن كانوا أشد الناس مسارعة لإجابة دعاء السلطان لهذا الجهاد المبارك...، وأنهم كانوا بمحلة مستقلة من غيرها... وكان عددهم يزداد تارة على الألف وتارة ينقص عنه إلى السبعمئة "...، وكانت أرزاقهم وسلاحهم من أرزاق العسكر وخزانة الملك عمرها الله تعالى، وأدام ملوكهم".³⁶

أما في الفتح الثاني فقد أمر الباي على جيش الطلبة المرابطين بوادي ايفري، العالمين الفقيهين محمد بن عبد الله الجليلي والطاهر بن حوا، إضافة إلى مشاركة محمد بن علي المازوني وولده وكذلك محمد المصطفى بن زرفة، وقد أقاموا عند جبل المائدة قرب وهران للتضييق على الكفار، وتركز دور الطلبة على التدريب على سلاح المدفعية، وحفر الخنادق وزرع الألغام.³⁷

وكان الطلبة المرابطون يدرسون ويحاربون أيضا، فكانت الرباطات قلاعا من جهة وزوايا ومدارس متنقلة من جهة أخرى

4/مستغانم: لقيت هذه الحاضرة انتعاشا أيام حكم الأسرة المراتية، فبعد سقوط وهران سنة 1732 بعد تحريرها الأول، على يد الباي مصطفى بوشلاغم المراتي، لجأ إليها هذا الأخير، واتخذها عاصمة لبابليك الغرب، وقد عرفت مستغانم عددا كبيرا من رجال القضاء والفقهاء من بينهم ابن حوا، وكان عدد المدارس بها سنة 1834 ثمانية مدارس واحدة لليهود، وأخرى أنجزت أثناء العهد الاستعماري، والباقي يعود إلى المرحلة السابقة، وكان التلاميذ يدرسون علوم الدين وعلوم اللغة كبقية مدارس المدن الأخرى³⁸

أ-مساجد مستغانم: بلغ عدد مساجد مستغانم خلال العهد العثماني 11مسجدا، ومن أهم المساجد العتيقة، مسجد سيدي يحيى بن ستي، الذي يعود تاريخه إلى أوائل القرن 7هـ، يحتوي على قاعة فسيحة الارحاء مستطيلة الشكل، وقد تتلمذ فيه عدد كبير من الطلاب، وتخرج منه جملة من

العلماء، كذلك المسجد الأعظم الذي بناه السلطان أبو الحسن المريني عام 739هـ، وكغيره من المساجد كان مزدوج المهمة، ففي الجانب الديني كان أداء الصلاة إضافة إلى الوعظ والإرشاد، والمهمة الثانية كانت في الجانب التعليمي التربوي، وكانت به خزانة مملوءة بالكتب والمخطوطات في مختلف العلوم والفنون³⁹.

ب- الزوايا: يرجع انتشار الزوايا في الغرب الجزائري، مقارنة ببقية المناطق الأخرى إلى استمرار الجهاد ضد الإسبان زهاء ثلاثة قرون، إضافة إلى قربها من المغرب الأقصى مقر الزوايا والمرابطين⁴⁰ ومن الزوايا التي ذاع صيتها الزاوية السنوسية التكوكية بالعرعار قرب أولاد شافع، وزاوية سيدي حمو الشيخ البوزيدي وحفيده القائم عليها الشيخ عبد القادر بن طه المكنى دحاح، والزاوية العلاوية للشيخ مصطفى بن عليوة، وزاوية سيدي قدور بن سليمان وزاوية الشيخ بالاحول القادرية قرب وادي الخير.

خاتمة:

- ساهم الاحتلال الاسباني لوهران والمرسى الكبير في تدهور الحياة الثقافية في المنطقة، وذلك بسبب انشغال حكام المنطقة بتداعياته.
- من أسباب تدهور الحياة العلمية في بايلك الغرب خلال القرنين (10-11هـ/16-17م)، عدم تشجيع الحكام المادي والمعنوي لها.

- كان لاعتلاء البايع محمد بن عثمان الكبير لمنصب بايع الغرب أثر بارز على انتعاش الحياة العلمية وذلك بفضل رعايته للعلم والعلماء، واهتمامه بالمدارس والمساجد، وتشجيعه لحركة النسخ والتأليف، ومكافأة العلماء على أعمالهم، فكتب على يديه فتح وهران سنة 1791م، بسبب اعتماده على العلماء والطلبة المرابطين على تخوم وهران.

- تقلد مازونة لعاصمة البايلىك ، كان من أسباب شهرة مدرستها الفقهية المالكية التي شدت إليها الرحال من داخل القطر وخارجه، كما أن حاضرة مازونة كانت وجهين لعملة واحدة فقد زوجت بين كونها عاصمة إقليم ازدهرت فيها الحياة الثقافية وبين كونها ثغر حربي يسعى لتحرير وهران والمرسى الكبير.

- ازدهار الحياة العلمية بحاضرة معسكر، بعد انتقال عاصمة البايلىك إليها، فذاع صيت المدرسة الحمديدية والتي زوجت هي أيضا بين الجانب العلمي والجهادي ضد الاسبان .

- أن الأربطة التي كان الطلبة يعمرونها مع علمائهم في وهران، فهم رهبان بالليل وفرسان بالنهار، آتت أكلها ففتح وهران قيضه الله على يد جيش الطلبة الذين ضيقوا الحناق على الاسبان ومعاونيهم من القبائل المجاورة لهم.

ساهمت العلاقة الوطيدة التي كانت بين البايع محمد الكبير والعلماء وتشجيعه لحركة التأليف، إلى ثراء المكتبات بمؤلفاتهم، وأشعارهم المدونة، فقد كان للبايع محمد الكبير الفضل في تدوين العلماء لمراحل فتح وهران بأقلام محلية، ولولاه لصادفنا نحن الباحثين في التاريخ أحادية الطرح من الجانب الأوربي فقط.

- أن المؤسسات التعليمية المتمثلة في المدارس والمساجد والزوايا والكتاتيب، في كل من مازونة ومعسكر ووهران ومستغانم قد زوجت بين مهمة العبادة والتعليم والتربية، وقد سجل هذا التظافر انتعاش الحياة الثقافية ببايلىك الغرب.

الهوامش:

- 1- البايع مصطفى بوشلاغم: هو مصطفى بن يوسف بوشلاغم المسراقي بايع الغرب الجزائري (1686-1733م) الذي حكم سبعا وأربعين سنة، وهو الذي خلف البايع شعبان الذي استشهد في حصار وهران سنة (1098هـ/1686م)، عزم على الانتقام له، ومن أعماله: نقل إيالة الغرب من مازونة إلى معسكر، ثم إلى تلمسان ثم إلى وهران، بعدما فتحها وهو صاحب الفضل الأكبر والدور الأساسي في فتحه، ولم ينصفه الشعراء الذين كتبوا عن الفتح الأول لوهران، باستثناء ابن سحنون الراشدي في (الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني)، حيث مدحوا الدايع محمد بكداش، ونسبوا إليه كل صغيرة

- وكبيرة وقعت في الفتح، وقد بقي مصطفى بوشلاغم بايا على وهران، إلى أن تمكن الإسبان من استعادتها سنة 1732م، وقام بنقل مقر بايليك الغرب بعد ذلك إلى مستعّام، بعدها حاول استعادة وهران ومات في مستعّام ودفن فيها وضريحه معروف بها.
- 2- سعيدوني ناصر الدين: عصر الأمير عبد القادر، ط1، الكويت، مؤسسة جائزة العزيز سعود البسايطين، للابداع الشعري، 2000، ص133
- 3- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، 10 مجلدات، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998م، ج1، ص285.
- 4- بوكفة يوسف: مدرسة مازونة الفقهية، النهضة والسقوط، رسالة ماجستير، جامعة وهران (2002-2003)، ص29.
- 5- عبو إبراهيم: مدرسة مازونة الفقهية ودورها التاريخي والحضاري، في مجلة الحوار الثقافي، العدد4 أبريل 2016، ص251.
- 6- أحمد بحري: حاضرة مازونة، دراسة تاريخية وحضارية في العصر الحديث (1500-1900م) رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران (2012-2013)، ص217.
- 7- جنان الطاهر- مازونة عاصمة الظهرة / ثغر حربي و مركز إشعاع حضاري- ط مكتبة الرشاد للطبع و 15 النشر و التوزيع- الجزائر-2005-ص93
- 8- مولاي بلحميسي: دور مازونة في الحركة العلمية والثقافية من منتصف القرن 15 إلى منتصف القرن الحالي- 1976ص6-ص14.
- 9- أبوراس الناصري- فتح الإله ومنتته في التحدث لفضل ربي ونعمته، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1990، ص20.
- 10- سعيدوني والمهدي بوعبدلي: الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص11.
- 11- سعدية رقاد: الحواضر العلمية في بايليك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني، في مجلة عصور الجديدة، عدد خاص، (1437هـ/2016م)، ص368.
- 12- ميسوم ميلود: مدرسة مازونة "دراسة تاريخية فنية" رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الفنون الشعبية، جامعة أبي بكر بلقايد بتلمسان، 2002-2003، ص37.
- 13- نفسه، ص99.
- 14- نفسه، ص ص110-118.
- 15- بوكفة يوسف، مرجع سابق، ص89.
- 16- Boyer. , le problem Kouloughli sous la régence d'Alger, article paru in la revue doccident musulman, n. special, 1970, p201
- 17- عبد المجيد مزيان: الأنظمة الثقافية في الجزائر قبل عهد الاستعمار في مجلة الثقافة، عدد90، نوفمبر/ ديسمبر، 1985م، ص44.
- 18- عبد القادر المشرفي صاحب كتاب بحجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الاسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر" يستعرض فيه أهم القبائل التي تعاونت مع الاسبان
- 19- محمد بوشنافي: موقف علماء معسكر من بعض القضايا السياسية للجزائر خلال العهد العثماني، في كتاب: معسكر: المجتمع والتاريخ لجامعة من الباحثين، إعداد وتنسيق: أ.د/ عبيد بوداود، مكتبة الرشاد - سيدي بلعباس - الجزائر، الطبعة: الأولى، تاريخ الإصدار، 1434هـ/ 2014م، منشورات مختبر البحوث الاجتماعية والتاريخية بجامعة معسكر، صص22-24.

- 20-بوجلال قدور: مظاهر التقارب والقطيعة بين العلماء والسلطة في بايلك الغرب فترة الدايات،(1671-1830)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث،جامعة أحمد بن بلة-وهران، (2016-2017م)، ص 207.
- 21- مهيرس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية،2009، ص 47
- 22-بوجلال قدور، مرجع سابق، ص ص 203-204.
- 23- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الحماني في ابتسام الثغر الوهراني:، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، ص ص228-229.
- 24- دباب بومدين :بايلك الغرب خلال القرن18،دراسة سياسية واقتصادية واجتماعية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر،جامعة الجليلي اليابس-سيدي بلعباس، ص.160
- 25- بوجلال قدور، مرجع سابق، ص ص 204-205.
- 26-ابن سحنون: مصدر سابق، ص127.
- 27-دباب بومدين: مرجع سابق، ص.154
- 28- سعدية رقاد : مرجع سابق، ص 372
- 29- مهيرس مبروك: المساجد العثمانية بوهران ومعسكر، ديوان المطبوعات الجامعية،2009، ص.41
- 30- سعدية رقاد : مرجع سابق، ص 372
- 31-مهيرس مبروك: مرجع سابق، ص14
- 32- سعدية رقاد : مرجع سابق ، ص 372
- 33- سورة الأنفال، الآية60
- 34-محمد بن محمود ابن العنابي: السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983، ص.57
- 35- للمزيد ينظر المهدي بوعبدلي، الرباط والفداء في وهران والقبائل الكبرى، مقال نشر في مجلة الأصالة، (1393هـ/1973م)، ع13، ص.20
- 36- الجامعي: فتح مدينة وهران، تحقيق حساني مختار، مخبر المخطوطات، جامعة الجزائر، 2003، ص ص87-88..
- 37-ابن زرفة أبو عبد الله بن عبد الرحمن: الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ج2، تحقيق مختار حساني، مخبر المخطوطات، الجزائر، 2002، ص ص234-236-328-334-354.
- 38- فتيحة الواليش: الحياة الحضرية في بايلك الغرب خلال القرن 18م،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الجزائر،(1993-1994)،ص161
- 39- يحي بوعزيز: مدينة وهران عبر التاريخ ، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م ص ص 193- 197.
- 40- فتيحة الواليش، مرجع سابق، ص170

